الوحش

سعد الدوسري

للظلمة ظلٌّ لا يقع إلاّ على الرئتين الخائفتين!

- لِمَ أنتِ خائفة دوماً؟! لِمَ كلُّ هذا الخوف؟!

ستائر البخار تنسدل على شهقاتها، فيتقاطر من جبينها نهرٌ أصفر تغوص فيه قدماي.

يرهبني الماء. ويرهبني أن أراها هكذا: مجدولةً حول أصابعَ جعَّدَتْها برودةُ الحنّاءِ التي نقشها في الليلة التي غاب فيها خلف جبالها.

الجبال، وريفٌ يشحذُ دمَه على ترابٍ ناءتْ به الجغرافيا إلى أقصى الجنوب، وبيتٌ تشعُّ حجارته ببردٍ مرير.

- لا تغلقي الباب.

- لكنّه في إثركَ؟!

- قلت لكِ، لا تغلقي الباب.

برقتْ في الخارج عينان حمراوان، وأخذتا تتقدّمان نحوه.

التفَتَ إليها. سكبتْ عيناه على عينيها أطواقاً من الفلّ، فضوَّعَتْ في الهواء رائحةُ السنوات التي ظَلَّ يقول لهم فيها:

- لا!

- لكنَّك بذلك تحكم على نفسكَ وعليْها بالموت.

كان يشمّ رائحةَ الموت مُذْ دَقَّ البابَ على أمها:

- أريد أن أتزوّج ابنتكِ.

شدّتِ الأمُّ وثاقَ رأسها الذي كان يرأف بها من صداع الشقيقة:

- هذه اليتيمة وحيدتي. كنتُ أتمنّى لها سواكَ.

شهقتْ بالبكاء، فسالت على نافذة الغرفة المتهالكة دموعُ غربةٍ فتتتها وعورةُ الطرق من أقصى الساحل الجنوبي إلى أطرافه العلوية.

- الجبال. هناك نختفي عن الأنظار. لن يجبرونا أن نكون متوحشين مثلهم.

- لكنّ الحياة موحِشَةٌ هناك.

- موحشة، أجل. لكنها ليست متوحشّة. لن يجبرني أحد هناك أن أقاتل. لا أريد أن أقاتل.

- سَيَسمُونَكَ بالجبن. وسيقتلونك.

- إنّهم لا يدركون أنهم يقاتلون أناساً لا قلوب لهم. لقد أطلقوا لنار قلوبهم العنانَ لكي تحرقنا في حربٍ لا شجر لنا فيها. إنّهم يدَّعونَ أنّهم يتوحشون لأجلنا. لا نريد الحرب. نريد ساحلنا بفقره، ببواخر البنّ والعاجِ والتوابلِ والشاي، بالربح القليل الذي يكسي عوراتنا، ويظلِّل شمسَنا الحارقة، ويحمينا من الطلقات التي يصوِّبها علينا الجنودُ.

- آآآآآآآه.

- الطلقة كانتْ في جبهته. نزف دَمَه وأحلامه التي ظلّتْ هاربةً منه منذ فقد أباه وأمّه وأختيه في لغم لا يعرف أحدٌ أيُّ قرية نصبته!! لذلك لا أريدك أنتَ. أنت بالذات.

- لماذا يا خالة؟!

- لأنّهم سيقتلونَكَ لا محالة. سيطلقون النار بين عينيك.

عيناه لا تزالان تطوّقان عينيها بالفلّ:

– نحن اللذين اخترنا أن نكون مَرْجَماً لحجارتهم. سيرجمون جسديْنا، لكنهم سيفشلون أن يهدُّوا جداراً قررتُ أنا وإياك سرّاً أن نبنيه.

– لماذا تختار أن تهلك؟!

– لأنّني لا أريد أن يهلكني سواكِ.

– أنتَ تختار الأصعب. ألم تنسَ كلَّ هذا الجحيم؟! لِمَ تُصِرُّ أن تزرع الصورةَ في الجدار مرّةً أُخرى؟! إنّهم لا يريدوننا معاً. كل هذه الحروب كي يطفئوا أيَّ اثنين يلطّخون الألغام المنصوبة بين القرى.

– لكنّ القرى بيني وبينكِ حدائقُ تغني.

– أنتَ وحدك الذي تسمع هذا الغناء، لكنهم يسمعونه هجاءً يجلد جلودهم، فيحاولون بالرصاص أن يطفئوه.

– الرصاص.. يا للرصاص الذي أنهكنا. امتصَّ من حناجرنا الكلام ولَفَظَنَا على أرصفة الميناء لكي يحوِّلنا من عمالٍ يبنون أبجديةَ كلامِ الساحل إلى أناس يثرثرون خارج البحر بلغة لا يفهمها الماء. ولذلك هربتُ إلى الجبال.

– سامحيني، سأخرج له.

– وتتركني؟!

– لا بدّ أن أخرج.

خرج، وكأنّ دماً انسحب من أوردتي لينسكب على قماشٍ غَزَلْتُهُ من خيالٍ موسوم به، بصهيل جواده الذي يطرق بحوافره جدرانَ بيتي كلَّ ليلة، حيث أنتظرُ هواءَ اسمهِ ليهبَّ من بين شفاهِ فتياتِ ريفٍ ضاع في الحقول. كنت أخجل أمام حروف اسمِكَ حتى ليجفل دمي. وحين أتيت أمي لم أكن لأجد سوى الصداع الذي لا يفارقها.

خذني إليك. أمي قتلتها الشقيقة، وأنت تهربُ من الحروب التي ملأت قُرانا. هي حشرجتْ قبل أن تموت:

– سيقتلونه.

أنت دمي الذي حيثَ ينبض أقولُ إنه أنت. أنت الذي أَبتدأُ به الحنّاءَ الذي نقشته على كفيَّ. حين رأيتكَ أنت تضربُ بفأسكَ الأرضَ قلت لنفسي: «هذا يضرب نفسه». مررتُ إلى جانبكَ. سألتكَ أن تراف بالأرض.

قلتَ لي:

– أريد أن أقتل العفريت داخلها.

سألتكَ:

– أتستطيع قتل العفاريت؟!

أجبتَني:

– سأحاول.

كنت تبتسم ابتسامةَ محاربٍ يخاف أن يموت قبل أن ينهي حربه. سألتَني:

– من أي ريفٍ أنتِ؟!

– من الريف المجاور.

رددتَ مبتسماً:

– كلُّ العفاريت في ريفكم.

ومضيتُ أجرُّ ذيل ثوبي الجنوبي وأنا أحسّ أنّك تلاحقني بنظراتكَ وتمزّق كلَّ ما كنتُ ألبسه.

أحسستُ أنّني أمشي عاريةً، ولذلك ركضتُ... ولحقتَني وأنتَ لا تزال تحمل الفأس إلى أن شارفتُ ريفي. التَفَتُّ إليكِ.

– ألاّ تخشاهم؟!

– أنا لا أخشى أحداً.

خرجتَ إلى العينين المتقدّمتين، ثم غبتَ في الجبال.

سألتُ نفسي:

– كيف أعيش دون أن أكحِّلَ عينيّ بك، وبهذا الذي يسألني دوماً:

– لِمَ أنتِ خائفة؟! لِمَ كلّ هذا الخوف؟!

ذلك الذي أقول له دوماً:

– لا ترهبْ من الماء، لأن الحنّاء التي جدلَها أبوكَ على أصابعي ستحميه دوماً من الموت، وسيعود.

يناير ١٩٩٥